تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وهي أربعٌ وثلاثون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك[3]. والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم[4] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوَّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ .

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٤٢٩ و٥/ ١٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ ، وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[١]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[٢]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[٣] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحَّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[٤].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيرِيّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[٥].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨/ ٨٦، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليُّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

---

(١) ١٣/١١٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/ ٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/ ٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتِهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغَنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧/ ٨ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.
وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[1] [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه[2]. وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه[3].

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[4]. وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»[5]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ. السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠. والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن المُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُويَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[١] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»[٣]. إلى غير ذلك. وكلُّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَات وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»[٤]. ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية ـ وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجشَة وسَلَمة بن الأكْوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيِّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

---

(١) ١/ ١٥٤.

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.
والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﷺ.
والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﷺ. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوَّ[١]. وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً[٢]. قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننَا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجَّار، حبَّذا محمدٌ من جارِ[٣]. وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعةَ يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيِّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندِي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[1]. فلو جازَ استصلاحُها لمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[2] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[3]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلَ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[4].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيُضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

---

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وينظر السبعة ص ٢٦٧، والتيسير ص ١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩. وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢.

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّثُ ويُذكَّر[٣]. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما ... لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثِقَلاً وصَمَماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لمَّا ذكر عذابَ الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢. وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩.

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤.

(٧) ٨/ ٣٤٥.

(٨) ١/ ٣٠١.

(٩) معنى «العزيز» سلف ٤٠٣ - ٤٠٤، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تكون «تَرَوْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البَتّة[١]. النحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأَولى أن يكونَ مُستأنَفاً[٢]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[٣]. ويكون «بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[٤]. وقد مضى في «الرعد»[٥] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[٦]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهيةَ أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلَّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوَّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنَّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوَّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[٧]. والخلق بمعنى المخلوق[٨]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[٩] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٥) ١٢/ ٦ - ٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣، والكلام الذي قبله منه.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠.

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر[١]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[٢]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[٣]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحَّاس[٤]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[٥]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[٦]. قال وهب: كان ابنَ أخت أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[٧]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥ .

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤ . ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل ـ قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُويَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأَ أخطأَ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقَبِلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ ، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١ ، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦ .

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[١] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[٢].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[٣]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[٤]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[٥]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[٦].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

---

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُويَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ٣٨/ ٥٤٨.

(٢) سلف ١/ ٢٨٧.

(٣) سلف ١٢/ ٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧.

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١.

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلَّا أن هذا الوجه عنده بعيد[١]. وقال الزجَّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأَنْ يشكر الله تعالى[٢]. وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»[٣] وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود[٤]. وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله[٥]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ[٦]. وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش[٧].

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنَه وامرأته كانا كافرين، فما زال يعِظهُما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»[٨] وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ . وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .

(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .

(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤ ، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .

(٨) (١٢٤) ، وقد سلف ٨/ ٤٤٥ .

بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[1].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[2]، وقد مضى في «هود»[3] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يقُال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٣) ١١/ ١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشْرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصيَّنا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبَرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠.

(٢) ١٦/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٥) ١٣/٥٢ - ٥٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل[١]. وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد[٢]. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذلِ من ناهٍ فَيَزْجُرَها ... إنَّ العواذِلَ فيها الأَيْنُ والوَهَنُ[٣]

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ[٤].

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس[٥]: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته[٦]. ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧ ، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧ ، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٩ ، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطِمَ الصبيُّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[١]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجَّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحَّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[٣]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[٤]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[٥].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بيَّنَّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[٦]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[٧].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٢) ٤/ ١٠٦ - ١١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦.

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[١].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][٢]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[٣]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبَعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنِه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والحديث سلف ٦/ ١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠، ونسبه إلى ابن السائب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنَه أن يفهَمَه؛ لأنَّ الخردلَةُ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[١]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[٢]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكنُّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكَنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[٣]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، وما بين حاصرتين منه.

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربَتْه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةً من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤ .

(٣) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٥٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧ .

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نَالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) ٢/ ٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦.

وألَّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة. وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ ، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣ .

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[١]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصَعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية ـ معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٢]. وقيل: هو أن تلويَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[٣]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثكَ أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[٤].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[٥]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[٦].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣)، والبخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[١]، وقد مضى في «سبحان»[٢]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[٣]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزْدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غَرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[٤]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[٥]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٦]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[٧]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسمَ له

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٢) ١٣/ ٨٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.

(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤.

(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتَماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطَاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة ـ في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية[٢]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأَتْ شيطاناً»[٣]. وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً[٤]. وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة[٥].

الخامسة ـ وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم[٦]، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك[٧]، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ[٨]، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس ... جهِيرُ الرُّواء جهيرُ النَّغَمْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤ .

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

وَيَعْدُو على الأيْنَ عَدْوَى الظَّليم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[١]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثَلِ سواء[٢].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدَرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[٣]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[٤]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأَصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/ ١٢٦؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤١.

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٢٣.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[١]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[٢]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما سترَ عليك من سيِّئ عملِك»[٤]. النحَّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[٥]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[٦]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[٧] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجِعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[٨] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّكَ، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[٩]. وقد مضى هذا في «الرعد»[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، وقراءة «وأصبغ» شاذة.

(٢) السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس ﷺ.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣.

(١٠) ١٢/ ٣٥.

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[١]. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حُجَّة[٢] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[٣]. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[٤]. وقد قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[٥]. النحَّاس: و«يُسلِّم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[٦] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣ .

(٣) سلف ٢/ ١٣١ .

(٤) ٤/ ٢٨٤ .

(٥) الشاذة ص ١١٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ .

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ[١]: قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدَّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.[٢]

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجِئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القَفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقَدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القَفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[1]. قال أبو جعفر النحَّاس[2]: فقد تبيَّنَ أنَّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[٢]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[٣]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[٤]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[٥]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[٢]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[٣]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٧] [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[٨]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[٩] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌۢ﴾ بما يفعلون[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، وهي قراءة شاذة.

(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢.

(٩) في (م): الأسدين.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[1]. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأُفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[2]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّورِيُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[3].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[4].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِى﴾ في موضع الخبر. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/ ٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/ ٨٥ - ٨٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦.

(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠ ، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥ .

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

يـمـاشـيـهـنَّ أخـضـرُ ذو ظـلالٍ عـلـى حـافـاتـهِ فِـلَـقُ الـدِّنـانِ[١]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظَّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[٢]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[٣]:

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطُهُ أحابيشُ منها حاسِرٌ ومُقَنَّعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[٤]. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ يعني من البحر[٥]. ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[٦]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[٧]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[٨]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فـإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمـيـرٍ مـلأتَ يـديـكَ مـن غـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩ ، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة ـ وهو الجعدي ـ ص ١٦٣ ، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ ، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥ .

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤ .

بـالأبْـلَـقِ الـفَـرْدِ مـن تَـيْـمـاءَ مـنـزِلُـهُ حِـصـنٌ حَـصـيـنٌ وجـارٌ غـيـرُ خَـتَّـارِ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: خترَه فهو ختَّار[1]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ ـ بالضم والكسر ـ خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[2] ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[3] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[4]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[5]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[6] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/٣٤٨.

(٣) ٢/٧٥ - ٧٦.

(٤) سلف ٤/١٢.

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/٢٦.

سورة الملائكة[١] والحديد[٢] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره[٣]، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين[٤]، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه[٦]. قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري[٧]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ[٨]. وقال عبد الله بن

---

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[١]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[٢]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[٣]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[٤]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتَهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١.

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١.

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديُّ[١]، وخرَّجه ابن ماجه[٢] من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً[٤]. وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»[٥] الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ[٦]. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فلا مُزْنةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها ... ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[٧]

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية[٨]. وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلٍّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ[٩]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «خَبِيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر[١٠]. والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠ ، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩) ، والترمذي (٢١٤٧).

(٢) في سننه (٤٢٦٣).

(٣) ص ٤ - ٧١ .

(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥ ، والتيسير ص ٧٥ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أُبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١ .

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧ .

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠ .